بناة العلم فى الحجاز الحديث :

السيد أحمد الفيض آبادى

للأستاذ عبد القدوس الأنصارى

« فصل مستل من الجزء الأول من سلسلة « بناة العلم فى الحجاز الحديث » . وهو الكتاب الذى يمثل مبادىء اليقظة العلمية الحديثة لمهد العروبة والاسلام ، فى العصر الحديث ، بأسلوب يجمع بين متعة الفن القصصى وعمق البحث العلمى ، لمؤلفه الأستاذ عبد القدوس الأنصارى صاحب مجلة « المنهل » بمكة ورئيس تحريرها . والكتاب تحت الطبع .

عهد جديد :

كان الفتى قد بلغ الخامسة عشرة من عمره . وكانت الأحلام المسولة تتراقص أمامه كما تتراقص مياه الغدير الصافى للظمآن فى الفيافى الجرداء . وكانت الحياة فى نظره رؤى وأحلاماً فيها الكثير من الغموض والاظلام . وقد كسبته الحوادث والأحداث الجسام التى مرت عليه قطعانها وهو ناعم الأظفار ، مرونة محدودة ودقة نظر غير بعيدة الأهداف فى الحياة والأحياء ... وكان الفتى خجولا منطويا على نفسه محباً للعزلة أنى وجد إليها سبيلا .

وكان لا يبتسم لشىء بقدر ما يبتسم للدرس والكتاب ، وما يستتبعانه من حفظ ومطالعة وتكرار .

وكأن انطوائيته فتحت له آفاق الدأب على تحصيل ما يرسم له من علوم . فكانت متعته وهجيراه أن يتخيل نفسه وقد بز الأقران ، وصار علماً فى العلم والأدب العربى يشار إليه بالبنان .

وكانت لديه مع ذلك نفس مكبوتة نزاعة إلى الالمام بهذه الفنون العصرية التى بدأت تستهويه نفحاتها القادمة من آفاق مصر والشام ؛ كما استهوت نفحات « سلامة » ابن أبى عمار المشهور بالقس لعبادته وتقواه . ولكنه فى حالته الراهنة ، وهو الطالب بالمسجد النبوى ، لا يكاد يشعر بوجود أية فجوة ينفذ من خلالها إلى ذلك الروض الذى يتخيله أنيقا كل الأناقة ، والذى يحن إلى الاستظلال بافيائه كل الحنين .

وفيما هو كذلك وإذا به فى أمسية من أماسى الربيع الساجية أمام شخصية بعيدة الصيت هى شخصية السيد أحمد الفيض آبادى التى اشتهرت بالنبل وسمو الأخلاق ، وقد تسربت إلى الفتى إشاعات بأن هذه الشخصية مزمعة أن تفتتح معهداً لتعليم الناشئة ما يصلح مستقبلهم فى معاشهم وفى معادهم . فيتقدم بالفتى أستاذه ومربيه إلى هذه الشخصية ، ويجرى بينهما حوار لا يتذكر الفتى الآن أكان قصيراً أم طويلا ، ولكنه يتذكر على كل حال أنه كان حواراً ممتعاً رصعت حواشيه بالبسمات وحسن التفاهم ، وتبودلت خلاله عبارات المجاملة والتقدير . وكان الفتى طيلة جلوسه بين يدى الشيخين المتحاورين يحدق النظر بملء عينيه وبقلبه أيضا إلى هذا الرجل الذى بدأ يستشعر له الحب والتقدير برغم بساطة مظهره وتواضعه . وسرعان ما علم الفتى من أستاذه عقب افتراق الرجلين أنهما — فى تلك الجلسة الرزينة الهادئة — قد وضعا تصميم الاتفاق على دخول أستاذ الفتى فى المدرسة الجديدة الناشئة رئيسا للمدرسين بها ، كما علم أنه قد فتح له باب عهد جديد بما تقرر من أن سيكون ضمن طلاب هذا المعهد فى عهده الأول .

ومن الحق أن نقول : إن قلب الفتى قد امتلأ غبطة بهذا النبأ السار الذى يحمل فى طياته تحولا جديدا فى مجرى حياته بما سيفتح له من أجواء معرفة أوسع مدى من المعرفة التى هو بسبيلها .

وبقدر اغتباط الفتى بهذه الناحية كان اغتباطه أيضا لما أدركه — عقب دخوله المدرسة — من أن المدير قد قرر صرف مكافآت شهرية للطالبين بقدر جدهم وتفوقهم ... ولم لا يغتبط الفتى بهذه الإعانة التى ستمهد له قسطا وافراً من حياة الاستقلال الذاتى ، وتساعده على التفرغ لتحصيل العلم ؟ ... فهو وإن يك مكفى الشؤون لدى مربيه الذى هو خاله وابن عمه وأستاذه ، إلا أنه مع ذلك كان يشعر من زمن الطفولة الغضة أنه يتيم ، ومن دأب اليتيم أن يشعر بأنه فى حاجة رتيبة إلى المعونة المادية الوافرة ضمانا لتحسين حاله فى المستقبل الغامض المجهول .

وقد ازداد جد الفتى وتضاعف اقباله على التحصيل ، وواصل ليله بنهاره ، ولم يرض مطلقا إبان دراسته إلا أن يكون الأول فى كل الاختبارات ، وآثر النصب على الراحة ، وأعرض بالكلية — وما كان من قبل مقبلا — عن ألوان اللهو والمتع التى كانت تستهوى اقرانه الآخرين .